

جبل

قد تُنكر العينُ ضَوْءَ الشَّمْسِ من رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ من سَقَمٍ

أبرز الرموز الواردة في فصل « جبل » ومعانيها :

م	الرمز	معناه
١	جبل	موسى عليه السلام
٢	ناظر الوقف	فرعون
٣	هدى هانم	امراة فرعون
٤	زقلط	هامان
٥	البلقيطى	شعيب عليه السلام
٦	شفقة	ابنة شعيب زوجة موسى
٧	آل حمدان	بنو إسرائيل فى مصر قبل موسى عليه السلام
٨	آل جبل	بنو إسرائيل فى مصر فى عهد موسى عليه السلام
٩	صخرة هند	المكان الذى ينزل فيه الوحى على موسى
١٠	دعبس	الإسرائيلى الذى استغاث بموسى مرتين

جبل توطئة

فى مطلع هذا الفصل - جبل - يتحدث مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الأستاذ نجيب محفوظ بأسلوب رمزى شديد الغموض ، يتحدث عن وقائع الاضطهاد والتعذيب ، التى كان يتعرض لها آل حمدان - بنو إسرائيل فى مصر - من فرعون وآل فرعون ، الأمر الذى دعا آل حمدان إلى الإصرار على اللقاء بناظر الوقف - فرعون - ليطالبوه بإعطائهم حقوقهم وكف الظلم عنهم .

ويلتقى بهم « الناظر » على كُره منه ، ولما انصرف آل حمدان عن اللقاء الذى لم يحقق لهم أدنى كسب ، أخذ الناظر يفكر فى أمرهم ويبحث عن وسيلة لتأديبهم ؛ لأنهم صاروا قوة كدولة داخل الدولة ، وتتدخل هدى هانم (امرأة فرعون) وتشير على زوجها أن يستعين بزقلط (هامان) فهو قادر على التكيل بهم ، وعلى تأديبهم ، وقالت لزوجها :

إن هامان أو زقلط يشاركهم فى ريع الوقف دون أن يؤدى عملاً ، وإذا سلط على آل حمدان فهو قادر بمعونة الفتوات على أن يبطش بهم .

ولما كُلف زقلط بهذه المهمة قاد الفتوات بنفسه ، وهاجم حى آل حمدان ، فأشبعوهم ضرباً بالنبايت ، وحطموا محالهم وحبسوهم فى بيوتهم ، وأصدر زقلط - هامان - أمراً لفتواته بأن يقتلوا كل إسرائيلى إذا خرج من بيته .

وبينما يجلس زقلط فى بيت الناظر - فرعون - فى مجلس يضم الثلاثة :

الناظر ، وهدى هانم زوجته ، وزقلط ، إذا بجبل - موسى - يدخل

عليهم ليقدم للناظر حساب الوقف اليومى ، وكان الناظر وزقلط وهدى هانم يتحدثون عن المصيبة التى حلتْ بِآل حمدان - قوم جبل - أو قوم موسى . فظل جبل صامتا لا يتحدث إلا إذا سُئِلَ .

ثم يأمر الناظر « جبل » بالانصراف ، فخرج ووقع فريسة لخاطرين هجما عليه :

أَيُظَلُّ عَلَى ولاء للناظر وزوجه هدى هانم ، ولياً نعمته ، وبخاصة هدى هانم التى كانت قد أنقذت « جبل » بإخراجه - وهو طفل - من حفرة مملوءة بالماء والطين ، ثم ربه فى بيتها كما يُربى أبناء الملوك ، أَيُظَلُّ عَلَى هذا الولاء وفاء للمعروف ؟ ويترك قومه آل حمدان الذين ينتمى هو إليهم أباً وأُمّاً .

أَمْ ينحاز إلى قومه وهم تحت وطأة العذاب الشديد ؟ وَمِنْ مَنْ ؟ من البيت الذى ينتمى إليه هو ، ويقوم بإدارة وقفه ؟ ثم وكيف ينحاز إلى قومه ، والعلاقة بينه وبينهم جافة ؟ وهو متهم - عندهم - بالسكوت عن نصره قومه ، وصلته بيت الناظر تمكنه من استرداد حقوقهم وكف الأذى عنهم ؟

ويعود جبل إلى بيت الناظر مرة أخرى ، ويجد الحديث عما حل بقومه مادة شهية فى أفواه الناظر وزقلط وهدى هانم ، فلا يملك إلا أن يُظهر ولاءه لقومه آل حمدان ، ويحتد النقاش بينه وبين الناظر وزقلط .

أما هدى هانم فتعلن خيبة رجائها فى ابنها جبل ؟! ، لأنها ولية نعمته وقد أنقذته طفلاً من هلاك محقق .

خرج جبل من هذا المجلس وقد أعلن - بكل قوة وصراحة - انحيازه إلى قومه « (١) » .

اتخذ مؤلف الرواية من هذا المطلع الذى لخصناه مدخلاً لسرد الوقائع التى

(١) أولاد الحارة ص ١١٣ - ١٢٧ ملخصاً .

صاحبت « جبل » من نشأته حتى مماته . فمن هو جبل هذا ؟ أهو رجل من أبناء حارة مصرية ، أم ماذا يكون ؟



● جبل هو موسى عليه السلام :

إن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو موسى رسول الله إلى بنى إسرائيل ، بل هو أكبر رُسُلهم وأشهرهم . وهذه هى الأدلة :

الدليل الأول - عصر اضطهاد بنى إسرائيل فى مصر :

لكى لا نكرر ما قلناه ، نحيل القارئ إلى الملخص الذى لخصناه قريباً يجد مؤلف الرواية يبدأ رسم صورة موسى - وإن سماه جبلاً - بعرض مركز للاضطهادات التى منى بها بنو إسرائيل فى مصر فى عهد الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل قد وفدوا إلى مصر حين كان يوسف عليه السلام وزيراً كامل التصرف فى شئونها المالية والتموينية ، ثم استقدم أباه وأمه وإخوته كما جاء فى القرآن الأمين ، حيث حكى قول يوسف لإخوته :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾ (١) .

ثم نفذوا ما أمرهم به ، وجاءوا جميعهم إلى مصر ، هذا ما قاله القرآن الأمين :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوْسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيْهِ ، وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللّٰهُ أَمِيْنٌ * وَرَفَعَ أَبْوِيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ... ﴾ (٢) .

ثم تكاثروا بالإنجاب على مر السنين ، وصاروا قوة يُعمل حسابها ، فخشى فرعون من تكاثرهم ، ووضع خطة تقوم على قتل كل مولود ذكر يُولد لهم ،

(٢) يوسف : ٩٩ - ١٠٠

(١) يوسف : ٩٣

وسخروا رجالهم وشبابهم للعمل فى الأعمال الشاقة ، وأنزلوا بهم أشد ألوان العذاب ، كما جاء فى القرآن الأمين :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فحديث مؤلف رواية « أولاد حارتنا » عن اضطهاد بنى إسرائيل ، أو آل حمدان كما ترمز إليهم الرواية ، هو دليلنا الأول على أن « جبل » هو موسى عليه السلام .



● الدليل الثانى - الالتقاط من الحفرة :

وُلِدَ موسى عليه السلام ، وسط موجات من التعذيب والتنكيل تعرض لها بنو إسرائيل فى مصر ، وكانت أمه ، وهى حامل به ، ترى أن مصيره هو القتل ، كسائر أبناء بنى إسرائيل الآخرين ، وسيطر عليها الخوف ، فأوحى إليها ربها بأن لا تخاف ولا تحزن ، وما عليها إذا وضعتة إلا أن ترضعه وتضعه فى صندوق محكم ، وتلقيه فى اليم - فى نهر النيل - وأن رعاية الله ستتولاه فلن يصاب بسوء ، وإذا بالقدر الحكيم يهين له الجو فيلتقطه آل فرعون ، ثم يهمون بقتله ، ولكن العناية الإلهية ترقق قلب امرأة فرعون ، وكانت لا تلد ، وتنهى عن قتله ، فيتربى موسى فى بيت فرعون ، ويسخر الله البيت ومن فيه وما فيه لخدمه موسى الذى سيكون على يديه هلاك فرعون وآله ، هذا ما قصه علينا الكتاب العزيز :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ، وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا * إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا

(١) البقرة : ٤٩

كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ؛ عَسَى
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ .

وهكذا خاب فرعون ونجا موسى بتدبير الله العزيز الحكيم ، خاب فرعون ،
لأنه قتل ألوف الأطفال بلا ذنب ، وجميعهم لو تركوا أحياء ما ضرروه ولا
لحقه منهم أذى ؟!

وأبقى طفلاً واحداً يراه أمام عينيه فى بيته صباح مساء ، يرفل فى حلل
النعيم ، وعلى يد هذا الطفل - لو درى فرعون وجنوده - هلاك فرعون
وهلاك ملكه ، فبالسخرية القدر من الطغاة وأعوانهم .



● الواقعة فى الرواية :

المؤلف - الأستاذ نجيب محفوظ - كان ، وهو يخط هذه الرواية - بين
نزعتين عارمتين :

إحداهما : حرصه الشديد على رسم صورة لكبار أولاد الحارة مستمدة من
واقع حياتهم .

والثانية : حرصه الأشد على إخفاء حقيقة « الشخص » الذى يرسم له تلك
الصورة ، ليظل ذلك الشخص كائناً وهمياً - أسطورة - من صنع الخيال .

ولذلك فإنه يعمد إلى بلورة الوقائع بتبديل فى قسماتها الواقعية ، حتى
تبدو بينها وبين صاحبها الحقيقى منافة وتدافع . هذا السلوك سلكه المؤلف فى
كل شخصية من الشخصيات الواقعية الذين لهم تاريخ أو سيرة محفوظة
خارج أولاد حارة الأستاذ « محفوظ » ، فتعال انظر كيف صور واقعة إلقاء
موسى فى اليم ، والتقاط آل فرعون له ، يقول المؤلف يصف حال جبل لما
تَوَزَّع قلبه بين ولاءين لقومه أو لبيت ناظر الوقف كما أشرنا من قبل :

« وودَّ أَنْ يدفع عنهم - أى آل حمدان قومه - لولا إشفاقه من إغصاب البيت - أى بيت فرعون - الذى آواه وربَّاه وتبنَّاه ، ماذا كان سيكون لو لم يدركه عطف هدى هانم - أى امرأة فرعون - منذ عشرين عاماً رأت الهانم طفلاً يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار مضت تتسلى بمشاهدته ، فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعمة الأمومة إليه ، أرسلت مَنْ حمّله إليها ، وهو يبكى خائفاً » (١) .

لم يأخذ من الواقعة إلا الحفرة رامزاً بها إلى « اليم » ، ثم دخول موسى بيت فرعون ، وأدار ظهره للباقي ، وهذا من الفر بعد الكر ، أو الإحجام بعد الإقدام كما ترى ؟

ثم عاد المؤلف وذكر هذه الواقعة مرة أخرى ، فقال فى وصف حالة نفسية لـ « جبل » :

« وأصوات تهتف من أعماق نفسه : لن تطيب الحياة على حساب الغير ، وآل حمدان - يعنى قوم جبل - أهله ، فيهم ولدتُ أمه وأبوه ، وفى مقابريهم دُفِنَا ، وهم مظلومون ، وما أقبح الظلم ، اغتصبت أموالهم ، ولكن مَنْ الظالم ؟ إنه وكليُّ نعمته الرجل الذى انتشلتته زوجته من الطين ، فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير » (٢) .



الدليل الثالث - المصارعة بين الإسرائيلى والمصرى :

حكى القرآن الأمين شجاراً وقع بين رجل إسرائيلى وبين رجلين من أهل مصر ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى فقتل موسى المصرى قتلاً خطأ غير متعمد ، ثم استغاث به الإسرائيلى فى المرة الثانية ، فهمَّ موسى بضرب المصرى ، لكنَّ

(٢) أولاد حارتنا ص ١٣٦

(١) أولاد حارتنا ص ١٣١

المصرى ذكر موسى بقتل الرجل الأول فأعرض عنه موسى ، وكان ذلك قبل بعثته رسولا إلى فرعون وملئه ، جاء ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَّزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ قَالَ رَبِّى إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِّى ، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ (١) .



● الواقعة فى الرواية :

قال المؤلف فى رصد هذه الواقعة :

« فرأى - أى جبل - رجلاً يركض فى رعب ، وآخر وراءه ، يطارده ، ويوشك أن يلحق به ، فأمعن النظر ، فعرف فى الهارب دعبس - الرجل الإسرائيلى - وفى المطارد قدرة - الرجل المصرى - . . وفى الحال عرف حقيقة الموقف . . وما لبث قدرة أن أدرك دعبس ، فقبض بيده على منكبه . . وصاح قدرة . . كيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى ؟

لن تعود سالماً . . وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل . . فناداه : أعثنى يا جبل ، أعثنى فأنت منّا قبل أن تكون منهم . . ووجد جبل نفسه يتقدم منهما . . وهو يقول بهدوء :

ترفق بالرجل يا معلم قدرة . قال قدرة : إنى أعرف ما ينبغى أن أفعله .

جبل : لعل أمراً ضرورياً دفعه إلى مغادرة بيته .

قدرة : ما دفعه إلا قضاؤه المحتوم » (٢) .

(٢) أولاد حارتنا ص ١٣٦ - ١٣٧

(١) القصص : ١٥ - ١٦

ويعمى الكاتب فى سياق كلامه الخيالى حتى يصل إلى اشتداد الموقف بين موسى وقدره ، ثم قتل موسى لقدره .

وأياً كان أسلوب الكاتب فى تصوير هذه الواقعة ، فإن ذكرها فى الرواية دليل على أن « جبل » فى الرواية هو : موسى عليه السلام .



الدليل الرابع - تجدد الشجار مرة أخرى :

يحكى لنا القرآن الأمين واقعة الشجار الثانية عقب الأولى فيقول :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ، قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ، إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١) .



● الواقعة فى الرواية :

عرض مؤلف الرواية : « أولاد حارتنا » هذه الواقعة فى صورة جدَّ مختلفة عما ورد فى الكتاب العزيز . فالقرآن يؤكد أن الشجار فى المرتين كان بين إسرائيلى ومصرى فى المرة الأولى غير المصرى الذى كان فى المرة الثانية .

وخلاصة الواقعة فى الرواية هى :

أن « دعبس » اتهم إسرائيلىاً آخر اسمه « كعبلها » باختلاس حبة بطاطة من « حلة » ، دعبس وأكلها ؟ وتشاجر الرجلان فى وجود جبل الذى انحاز إلى « كعبلها » لأن « دعبس » اتهمه بغير دليل ، وراح جبل يكيل الضربات

(١) القصص : ١٨ - ١٩

لدعبس ، فقال دعبس لجبل : أتريد أن تقتلتنى كما قتلت قدرة ؟! (١) ،
وكان قول دعبس هذا إعلاناً لأول مرة عن قاتل « قدرة » المصرى .

هذا التزوير لم يلجأ إليه مؤلف الرواية إلا للتمويه على القراء حتى لا يفطنوا
إلى أنه يتحدث هنا عن موسى عليه السلام ، وهو من الفر بعد الكر أو الإحجام
بعد الإقدام قصداً للتمويه .

ومهما بلغت مهارة المؤلف فى « الروغان والزوغان » فإن ما فيه بادٍ على فيه ؟!
ألا ترى إلى قوله منسوباً إلى دعبس : أتريد أن تقتلتنى كما قتلت قدرة .
قارن هذا القول بعبارة القرآن الحكيم :

﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ حيث سطا المؤلف على
العبارة القرآنية مع تبديل يسير : قدرة مكان « نَفْسًا » ، ثم حَذَفَ « بِالْأَمْسِ » ،
وهذا كذلك فر بعد كَرٍّ ، وإحجام بعد إقدام .



الدليل الخامس - الناصح الأمين :

ويضيف القرآن الأمين إلى واقعتى الشجار الذى حدث بين الإسرائيلى
والرجلين المصريين ، واقعة أخرى ، مؤداها أن رجلاً ناصحاً أميناً ، لما فشا
فى المدينة - القاهرة الآن - أن موسى عليه السلام هو قاتل المصرى الأول ،
وتأمر آل فرعون على قتل موسى ، جاء الرجل الناصح الأمين ، وأشار عليه
بالخروج من المدينة ، بعد أن أعلمه بما يدبره له آل فرعون . وفى ذلك جاء
قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ
يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢) .

(٢) القصص : ٢٠

(١) أولاد الحارة ص ١٥١ ملخصاً ..

● الواقعة فى الرواية :

ذكر مؤلف الرواية هذه الواقعة ملفوفة فى قتام كثيف ، حيث زعم أن الناصح لجبل - أى لموسى - رجل كان يسير مع موسى اسمه « ضلّمة » (١) يقول الكاتب : إن ضلّمة هذا دعا موسى ليقيم معه فى شقته للتستر عليه ، ثم دار بينهما الحوار الآتى :

جبل لضلّمة : ألا يوجد سبيل إلى الخروج ؟!

ضلّمة لجبل : أتخاف يا جبل أن يشى بك أحد إلى أعدائنا ؟

جبل : دعبس أحمق .

ضلّمة : نعم ، ولكنه ليس بالتدل .

جبل : أخاف أن تثبت عليكم - أى على آل حمدان - التهمة بسببى .

ضلّمة : سأدلك على طريق الهروب إذا أردته « (٢) .

لقد بلغ العبث مدى بعيداً فى « أولاد الحارة » فى سوق هذه الواقعة كما ترى ، ولم يكن فيها من الحق إلا لون شاحب كالح . ومع هذا فإنها دليل فاضح لما يكتمه المؤلف .



● الدليل السادس - خروج موسى إلى مدين :

يحدثنا القرآن الأمين أن موسى خرج إلى مدين ، استجابة لنصح الناصح الأمين ، داعياً ربه أن يهديه سواء السبيل ، وينجيه من القوم الظالمين . قال سبحانه :

(١) لست أدرى سر هذه التسمية المقبضة ، ما كان فى وسع مؤلف الرواية أن يسميه « نور » ، لأنه أثار بصيرة رسول الله موسى ، أم أن المزاج العام الذى كان يسيطر على المؤلف هو الذى أملى عليه هذه التسمية ضلّمة ؟! (٢) « أولاد حارتنا » ص ١٥٢

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .



● الواقعة فى الرواية :

أما مؤلف « أولاد حارتنا » ، فصور الواقعة فى خيال سرايى خادع ، حيث انتهى خروج موسى إلى سوق المقطم ، وجلس على مقعد يراقب الزبائن غادين ورائحين . وبهذا يكون خروج موسى أو جبل بدأ وانتهى إلى نفس المكان الذى خرج منه ، إلا بضع خطوات قد يخطوها إنسان داخل بيته من غرفة إلى غرفة ، وأين سوق المقطم من « مدين » ياهوه ؟! (٢) .

وهذا التمويه والتشويش ليس بنافعه ، فالمراد معلوم ، والمخفى مكشوف فأين المفر ؟



● الدليل السابع - سُقْيَا موسى لابتى شعيب عليه السلام :

نذكر القارئ بأن رمز شعيب عليه السلام فى رواية « أولاد حارتنا » هو « البلقيطى » ، وهى تسمية لا معنى لها سوى ما أراده منها الكاتب مثلما ، أراد من « ضلّمة » من قبل ، وشعيب نبي كريم فكان حرياً أن يكون رمزه كريماً كمعناه ، ولكن للناس فيما يعشقون مذاهب ؟!

وسُقْيَا موسى عليه السلام لابتى شعيب عليه السلام قصها علينا القرآن الأمين فى أسلوب واضح ، جاء فيه :

(٢) أولاد الحارة ص ١٥٤ ملخصاً .

(١) القصص : ٢٠ - ٢٢

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَزُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿ (١) .



● الواقعة فى الرواية :

عمد مؤلف الرواية « أولاد حارتنا » فى أسلوب أشبه ما يكون ببرنامج إذاعى فكاهى اسمه : لخبط لخابيط ؟ لعبط لعابيط ؟! (٢) هكذا - والله - تخيلت تشبيه كلام المؤلف - هنا - مع أنه يعرف الصواب كيف يكون فقد جعل البئر التى كان حولها الرِّعاء يسقون أغنامهم ، جعلها « حنفية » أو صنبور مياه ؟!

وجعل سقيا موسى أغنام ابنتى شعيب عليه السلام أنه ملأ لهما صفيحتين ؟ وجعل شعبياً أو البلقيطى موجوداً بمكان السقيا ، ولم يذهب موسى إليه بعد أن أرسل إليه إحدى ابنتيه ؟!

وزاد على هذا أن شباباً ظلوا يعاكسون ابنتى شعيب عليه السلام ، فدخل معهم موسى فى معركة « حمشة » وانتصر عليهم ؟!

كما جعل إحدى ابنتى شعيب « تكبس » موسى عدة مرات وترفض مساعدته لهما (٣) .

(١) القصص : ٢٢ - ٢٣

(٢) معذرة للقارئ إن كنت قد لخبطت فى العنوان : هل هو شخبط ، أو لعبط أو لخبط ؟

(٣) أولاد الحارة ص ١٥٤

ليقلُ الكاتب ما شاء ، ومهما توارى خلف رموزه « ولخايطه » ، فإن « جبل » هو موسى عليه السلام .



● الدليل الثامن - لقاء موسى وشعيب عليهما السلام :

لما عادت ابنتا شعيب وأخبرتا الخبر ، أوفد إحداهما إلى موسى تدعوه إلى زيارة أبيها ، فلبى موسى الدعوة ، ثم دار بينهما حديث نقله إلينا القرآن الأمين في صدق فقال :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

دلالة الآية الكريمة على أن موسى ظل في مكانه بعد أن سقى لابنتى شعيب ، وأن شعيباً كان ثاوياً في بيته لم يغادره ، وأنه أرسل إحدى ابنتيه إلى موسى تدعوه للقياء ، وعندما التقيا طمأن شعيب موسى بنجاته من الظالمين .



● الواقعة في الرواية :

أمّا رواية « أولاد حارتنا » ، فقد عمدت إلى تشويه « أحسن القصص » وأدخلت فيه لغواً فارغاً ، وحشوا مُملاً ، إذ صورت - جبل - يخوض معركة مع شبان كانوا يغازلون ابنتى « البلقيطى » ويفاجأ « جبل » وهو مشتبك مع الشبان بشيخ كبير يقول :

« اذهبوا يا شين الرجال » يخاطب الشبان ، ثم مضى المؤلف يقول :

(١) القصص : ٢٥

« اتجهت الأبصار نحو رجل كهل قصير ، مُدْمَج الجسم ، برَّاق العينين ،
يشد جلبابه على وسطه بحزام ، فهتفوا خجلين :

« المعلم البليطى » ^(١) ، ثم يمضى المؤلف فيقول : إن شعيباً قدَّم نفسه
لموسى قائلاً : أنا البليطى الحاوى » ، وأن موسى قال : حصل لنا الشرف ،
كثيرون يعرفونك فى حارتنا » ^(٢) .

أما ترى كيف عبثت رواية أولاد الحارة بالواقعة ، وهى تعلم من هو جبل ،
ومن هو البليطى فى قاموسها الرمزي ؟ وهى - كذلك - تعلم جلال
الموضوع الذى تحاكيه وترويه ، وتتخذ منه مادة للإضحاك ، بل والقهقهة حتى
الاستلقاء على الظهر ؟!

إن لقيا جبل - أى موسى - بـ « البليطى » - أى شعيب ، دليل تلو دليل
على تعرية « خبايا أولاد الحارة » ، وكشف اللثام عن جبل ، ليصبح موسى ،
وعن البليطى ليظهر شعيب .



● الدليل التاسع - تزويج موسى وعمله لدى شعيب :

ثم يمضى القرآن الأمين ، فيضيف إلى ما تقدم حلقة جديدة من سيرة
موسى عليه السلام ، والعلاقات التى توطدت بينه وبين شعيب ، فيقول :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى
الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ، عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي
ثَمَانِي حَجَجٍ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ،
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * ﴾ ^(٣) .

(٢) « أولاد حارتنا » ص ١٥٦

(١) « أولاد حارتنا » ص ١٥٥

(٣) القصص : ٢٦ - ٢٨

• الواقعة فى الرواية :

عرضت رواية « أولاد حارتنا » هذه الواقعة فى ست عشرة صفحة ،
حشتها بلغو خيالى أساءت فيه إلى موسى وشعيب معاً ، وهى تعلم أنها
تتحدث عن رسولين كريمين ، وكان مما جاء فيها :

إن - جبل - أو موسى فُتِنَ بشقيقة ابنة شعيب ، تطربه رؤيتها ، ويسعده
حديثها ؟!

إنه - وشعيب - كانا يدخنان « الجوزة » معاً .. ؟!

إن « جبل » بعد أن تزوج من شقيقة ابنة شعيب لم يكن له من عمل
أو نشاط سوى أمرين :

الأول : أن تكون شقيقة راضية عنه ؟

الثانى : الفراغ وحب الكسل والخمول ؟

وما أكثر ما قبع جبل فى البيت ، وكلما دعاه البلقيطى للعمل أخلد جبل
إلى الأرض ، محتجاً بأن أدهم - آدم - من قبل كان يحب الجلوس فى
حديقة البيت الكبير ، والسماع إلى الغناء ؟!

ولما يئس منه شعيب (البلقيطى) شكاه إلى شقيقة زوجته ، فظلت تحضه
على العمل حتى استجاب .

ولكن ما العمل الذى زاوله جبل أو موسى لدى شعيب ؟ تقول رواية :
« أولاد حارتنا » إنه عَمِلَ حاوياً مثل « نسيه » البلقيطى ؟ وأنه كان يعرض
ألعابه فى السوق ، ويحسن ترويض الثعابين ، والتعامل معها ؟

وفجأة أبصره دُعْبَس وهو يعرض ألعابه على الناس ، فتعرفا ودار بينهما
حديث غير قصير ، وتبادلا الأخبار (١) .

(١) أولاد الحارة ص ١٥٩ - ١٧٤ ملخصاً .

وهكذا تظهر الرواية موسى عليه السلام ، وهو من أولى العزم من الرُّسل ،
تظهره كسولاً خاملاً مثله الأعلى أن يشعر - دائماً - برضا زوجته شقيقة ؟ ثم
تسند إليه عملاً من أحقر الأعمال ، كما أسندته إلى « شعيب » من قبل ،
وكما أسندت إلى آدم بيع « الخيار » الملوث على عربة كارو ، وثلاثتهم من
الرُّسل والأنبياء الكرام !؟

وهذا الدليل وإن عددناه واحداً ، فهو فى الواقع دليان :

● العمل لدى شعيب .

● وتزوجه من ابنته .

ولكننا عددناه دليلاً واحداً على أن « جبل » فى رواية « أولاد الحارة » هو
موسى عليه السلام لشدة ارتباط الواقعتين فى طور واحد .

وذلك فى « العقد » الذى أبرماه - شعيب وموسى - فى أول لقاء لهما :

العمل من موسى ، والتزويج من شعيب ، وقبول موسى لشروط العقد
ومقتضياته :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ
عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .



● الدليل العاشر - عودة موسى إلى مصر وتوحيجه بالرسالة :

عودة موسى - عليه السلام - حدث ضخم فى حياته ، وتغيّر فى مجرى
التاريخ الدينى النبوى - الذى هو موضوع رواية « أولاد الحارة » - فقد خرج
موسى من مصر ، وهو عبد صالح ، وذو فطرة نقية ، ثم عاد إلى مصر ،
وهو رسول موحى إليه ، يحمل أعباء رسالة عظمى ، لم يسبق لها مثيل فى
التاريخ الدينى النبوى من قبل .

رسولاً إلى فرعون الطاغية وملئه أجمعين .

ثم رسولاً إلى بنى إسرائيل ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم
بأيام الله .

هذه المعاني الجليلة ، قصها علينا القرآن في مواضع عديدة من سوره
المباركات .

ومن أول المواضع في نظم السيرة النبوية لموسى ، واقعة عودته إلى مصر ،
وتتويجه بالرسالة وهو في الطريق إليها ، هكذا قص علينا القرآن الأمين :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ،
قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ
النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ، فِي
الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ، مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَنْ
أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ، اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ
غَيْرِ سُوءٍ ، وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (١) .

هذا ما فوجئ به موسى ، وهو في الطريق إلى مصر قبل أن يدخلها .



(١) القصص : ٢٩ - ٣٢

أتاها : أتى النار ، نودى : ناداه ربه ، جان : حية ، أسلك : أدخل ، الجناح :
الجنب ، الرهب : الخوف ، أى إذا خفت من رؤية الحية فضع يدك على جنبك يذهب
خوفك .

برهانان : آيتان تدلان على أنك رسول من عند الله ، والبرهانان هما : خروج يده
من جيبه بيضاء ناصعة ، وانقلاب العصي ثعباناً .

● الواقعة فى الرواية :

أما رواية « أولاد حارتنا » فقد صورت العودة والتتويج بالرسالة فى عبارات خرافية ، كأنها فصل من فصول ألف ليلة وليلة ؟!

قال فى العودة إلى مصر :

إن « جبل » ومعه أهله - عاد إلى مصر فى ليل دامس ، وقصدا حمدان شيخ بنى إسرائيل أو آل حمدان كما فى الرواية ، فرحبَ بهما حمدان ، وانتشر نبأ عودة جبل وزوجته فى حى آل حمدان ، فتوافدوا عليه جماعات ووحداناً .

وكان جبل عند عودته يحمل « بقجة » ، وشفقة تحمل « بقجة » أخرى ، وأدخلت شفقة إلى حجرة الحریم ، وأدخل جبل حجرة واسعة يستقبل المهنيين وجلسوا على الشلت .. ؟! (١) .

● أما تتويج موسى بالرسالة فى رواية أولاد الحارة ، فاسمع إلى جبل وهو يقص نبأ الرسالة :

« مضيت فى تجوالى فى ظلام دامس وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل - يعنى الجبلاوى رمز الألوهية (الله) - توهمت أول الأمر أنه أحد الفتوات ، ولكنه بدا لى شخصاً » ليس كمثله أحد فى حارتنا ، ولا فى الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل » (٢) .

وإذا بصوت عجيب : « قف يا رجل » ، فتسمرت فى مكانى ، وسألته وجلدى ينضح بالخوف : من ؟ من أنت ؟

(١) أولاد الحارة ص ١٧٤ - ١٧٥ ملخصاً ، والبقجة : الصرة .

(٢) ليس كمثله أحد ، هو وصف الله كما جاء فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ فالكاتب هنا يصف الجبلاوى قاصداً منه « الله » لا محالة ؟!

يقول المؤلف : فتوقف جبل عن الحديث وتساءل ضلّمة :
من حارتنا ؟

فرد عليه عتريس : قال : ليس كمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميعاً .
ثم عاد جبل ليواصل الحديث ، فقال كما في الرواية :
« قال لى بصوته العجيب : « أنا جدك الجبلاوى » .

وتلقى الجالسون هذا الكلام بالإنكار والدهشة ، بل والسخرية ، واتهموا
- جبل - بأنه « مسطول » ، فظهر الغضب في وجه جبل ، وقال :
« سمعته بأذنى ، وهو يقول لى : « لا تخف أنا جدك الجبلاوى » ، ثم
واصل جبل الحديث :

« وحددت بصرى لأتبين وجهه المرتفع فى الظلام ، فقال لى : لن تستطيع
رؤيتى ما دام الظلام ، فقال جبل : لكنك ترانى فى الظلام .

قال الجبلاوى : « إنى أرى فى الظلام قبل أن توجد الحارة » .
قال جبل : فقلت بإعجاب : الحمد لرب السموات على أنّك ما زلت
تتمتع بصحتك ؟ فقال الجبلاوى :

« أنت يا جبل ممن يُركن إليهم ، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضباً
لأسرتك المظلومة ، وما أسرتك إلا أسرتى ؟! ، وهم لهم فى وقفى حق
يجب أن يأخذوه . . . فسألته : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟
فقال : « بالقوة تهزمون البغى ، وتأخذون الحق » (١) .

* *

(١) أولاد حارتنا ص ٧٦ - ١٨٠

● وقفة مع هذه الفقرات :

تقيدنا فى النقل بكلام المؤلف ولم نغير فيه حرفاً ، سوى حذف ما لا حاجة إليه ، والفقرات التى نقلناها لا تقف عند حد الدلالة على أن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو « موسى » فحسب ، بل لها دالتان أُخريان عظيمتان بالنسبة لنا :

فهى تدل دلالة قاطعة على أن الحارة فى « أولاد حارتنا » هى الدنيا بكل من فيها وما فيها ، دليل ذلك قول « الجبلاوى » لـ « جبل » :
« إنى أرى فى الظلام قبل أن توجد الحارة » ؟ فلما كان « الجبلاوى » عند المؤلف هو - والعياذ بالله - (الله) ، فإن الله يرى لا يحجب رؤيته شىء قبل أن تخلق الدنيا .

أما الدلالة الثانية لهذه الفقرات فهى : أن « الجبلاوى » فى خيال مؤلف الرواية هو - قطعاً - والعياذ بالله مر أخرى - (الله) سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً ، ومواطن الأدلة على هذا فى هذه الفقرات هى :
« ليس كمثله أحد فى حارتنا ولا فى الناس جميعاً » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

قول الجبلاوى لجبل كما قال المؤلف :

« لن تستطيع رؤيتى » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانى ... ﴾ (٢) .

قول الجبلاوى لجبل : « بالقوة تهزمون البغى » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ... ﴾ (٣) .

(٣) الأعراف : ١٤٥

(٢) الأعراف : ١٤٣

(١) الشورى : ١١

أما قول المؤلف على لسان جبل للجبلاوى :

« الحمد لرب السموات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك » .

فإنه فى تقديرنا أتى به للإيهام على القارئ ، ووضع غشاوة على بصره أو بصيرته لكيلا يرى الحقيقة ، ومثلها عبارته فى وصف الجبلاوى : « طويلاً عريضاً كأنه جبل » ، هذا كله ، وغيره كثير فى الرواية من باب الفر بعد الكر ، والإحجام بعد الإقدام قصداً للتمويه ، والله أعلم بما فى السرائر .

إن معنى الرموز - هنا - شديد الوضوح ، وبخاصة لمن كان ملماً بقصص الأنبياء ، حافظاً لكتاب الله ، أو كانت موضوعاته حاضرة فى ذهنه وإن لم يكن حافظاً .

« أسرتك أسرتى » :

هذه العبارة مما تقوّلها المؤلف على الجبلاوى رمز الألوهية (الله) ولها معنى خطير ، هو أن المؤلف يجارى اليهود فى دعاواهم الفارغة :

● أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟!

● أنهم شعب الله المختار ؟!

انظر كيف شرد به الخيال ؟ وكم أباح له أسلوبه الرمزي من الأقوال التى تخر لها الجبال هدأ ؟

المؤلف يعرف - تماماً - ما جاء فى الذكر الحكيم عن الموضوعات التى حرّف وبدّل وغيرَ فيها ، وأضاف إليها ما ليس منها ، وبتر عنها ما هو من صميمها ، واسأل نفسك عزيزى القارئ :

لماذا لم يشر إلى وزارة هارون لموسى ؟

ولماذا أدار ظهره للنار التى رآها موسى فى طريق عودته من مدين إلى مصر ؟

ولماذا غصّ بصره عن الآيتين أو البرهانين اللذين جعلهما الله معجزتين

لموسى على فرعون وملئه ؟

لقد عودنا الكاتب أنه بالإضافة إلى الرمز الذى يغلف فيه معناه تمويهاً وتشويشاً يعتمد فى روايته وسيلتين أُخريين للتمويه والتشويش .

● أن يُضيف إلى الواقعة ما ليس منها ؟

● أو يحذف منها ما هو من أركانها ؟

وما أكثر ورود هاتين الوسيلتين فى رواية « أولاد حارتنا » أو « أولاد حارة الأستاذ نجيب محفوظ » ، وهو الصحيح .

* *

● الدليل الحادى عشر - إرسال موسى إلى فرعون :

● رسالة موسى عليه السلام - لها طوران ، أو هى رسالتان :

● رسالة إلى فرعون وملئه ، كما جاء فى القرآن الكريم مخاطباً العرب فى شبه الجزيرة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ (١) .

وكانت مهمته فى هذه الرسالة مزدوجة :

(أ) شقها الأول دعوة فرعون وملئه إلى التوحيد والطاعة .

(ب) وشقها الثانى استخلاص بنى إسرائيل من الذل والهوان الذى أنزله بهم فرعون وقومه .

ثم رسالة إلى بنى إسرائيل أنفسهم ، يدعوهم - كذلك - إلى توحيد الله وطاعته فيما يأمر به أو ينهى عنه .

(١) المزمل : ١٥

وقد جاءت الرسالتان على الترتيب المشار إليه ، حيث كُلِّفَ موسى ، ومعه أخوه هارون ، بدعوة فرعون أولاً بشقيها المذكورين :

أن يدعواهم إلى توحيد الله وطاعته ، وأن يطالباه بفك الحصار الذى فرضه على بنى إسرائيل بمصر ، وأذاقهم فيه العذاب صنوفاً وألواناً :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (١) .

﴿ فَاتَّيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ (٢) .

ووقائع الرسالة الأولى كان مسرحها مصر ، حيث ذهب موسى وهارون ، وبلغا فرعون وقومه ما أرسلوا به إليهم .



● الرسالة فى الرواية :

اقتصرت الرواية على رسالة موسى إلى فرعون فحسب ، ولم تقم وزناً لرسالته إلى بنى إسرائيل وهى الأساس ، وحتى فى حديثها عن رسالة موسى أو جبل كما هو معروف فى الرواية ، فإن حديثها وقف عند حد دنيوى بحت ، ولم تتعرض للجانب الإيمانى الروحى لا من قريب ولا من بعيد ؛ لأن قضايا الإيمان لا وجود لها فى الرواية كلها .



(٢) الشعراء : ١٦ - ١٧

(١) طه : ٤٣ - ٤٦

• حديث الرواية عن الرسالة الأولى :

لطول ما ثرثرت به الرواية فى هذا المقام ، نلجأ إلى تلخيصه توخياً للإيجاز : « سأل ناظر الوقف - فرعون - جبلاً عن سبب مجيئه لبیت الناظر ، فقال جبل - موسى - : جئت مطالباً بحقوق آل حمدان فى الوقف وفى الحياة الآمنة ، لكن الناظر اشتاط غضباً وقال لجبل :

أتجرؤ على هذا الحديث ؟ وتدخلت هدى هانم - زوجة فرعون - وقالت :

كان فى نيتى يا جبل أن أدعوك للإقامة أنت وزوجتك معنا ، فقال جبل : إنما قلت لكم رغبة جدنا وجدك الجبلاوى ؟ فما كان من الناظر إلا أن يشتم « جبل » ويتهمه بالجنون ، لكن « جبل » قصَّ عليه فى هدوء مقابلته للجبلاوى والحديث الذى دار بينهما (١) .

فقال الناظر : إنك حارٍ بجدارة ، ثم انهال عليه لکماً وضرباً ؟!

أحدث هذا اللقاء قلقاً فى حى آل حمدان - بنى إسرائيل فى مصر - وسرعان ما اجتمعوا حول جبل فذكرهم بوصية الجبلاوى بأن يكونوا أقوياء ، وقال :

لم يكرِّم الجبلاوى حياً من هذه الأحياء كما أكرمكم (٢) ، ولو لم يعتبركم أسرته الخاصة ما لاقانى ولا كلمنى ، ولكنه نور السبيل ، ووعد بالتأييد . ووالله لأكافحن ولو كنت وحدى .. واحتل جبل مكان الزعامة فى حيه (٣) .

هكذا عرضت رواية « أولاد حارتنا » لقاء موسى بفرعون لقاء خلا تماماً من المهمة الأولى لموسى فى رسالته لفرعون وملئه حتى تكليف الجبلاوى لموسى

(١) يعنى أن موسى عليه السلام أخبره بأنه رسول الله إليه وإلى قومه .

(٢) يستوحى الكاتب هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ٤٧) .

(٣) أولاد الحارة : ص ٨٤ - ١٨٨

كان محصوراً فى أمر دنيوى أراضى مثل أى زعيم سياسى أو شعبى يصارع من أجل متاع الحياة الدنيا ولا شىء غيرها .

إن رسالة موسى لفرعون وقومه كانت قبل كل شىء لإعلان وإعلاء كلمة التوحيد ، وتعريف فرعون بأنه عبد مربوب ، لخالق السموات والأرض ، ولنقرأ معاً هذه الآيات الكريكات ، لنرى كيف جرّدت رواية أولاد حارة الأستاذ نجيب محفوظ رسالة موسى إلى فرعون وملئه من أصولها الإيمانية ، وعبث بها كما تعبت الرياح العاتية بخشاش الأرض :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ (١) .

انظر كيف قرع موسى أذان فرعون وملئه بكلمة التوحيد ، وأخذ يكررها مرات رداً على فرعون ، ثم يلجم فرعون حجراً بإعلان المعجزتين أمام ناظره وملؤه يشهدون ، ثم ينتصر الحق فى النهاية بإيمان السحرة وخذلانهم لولى نعمتهم فرعون لما ظهر لهم باطله ولاحت لهم آيات الإيمان تملأ العيون والقلوب ، فهتفوا بأعلى أصواتهم : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٢) .

ثم تحدوا فرعون لما هددهم ، وكانوا من قبل دمية فى يده يحركهم كيف شاء :

(٢) الشعراء : ٤٧ - ٤٨

(١) الشعراء : ٢٣ - ٣٣

﴿ قَالَ أَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

عُدُّ إلى ما فى رواية « أولاد حارتنا » ، وفتش فيها عن هذه المواقف الإيمانية الخالدة ، وزهوق الباطل أمام الحق ، فإن عُدَّتْ إليها فلن تجد فيها إلا طمساً لهذه المواقف المتدفقة بحيوية الحق وإشراقات الإيمان !



● الدليل الثانى عشر - واقعة السحرة :

واقعة السحرة كانت أول مسمار يُدق فى نعش فرعون وطغيانه ، كان فرعون يرى أن موسى ساحر ، وأن ما جاء به سحر ، وجمع مهرة السحرة فى مملكته ليهزموا سحر موسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ... ﴾ (٢) .

ولما جاء سحرته قالوا :

﴿ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أُلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقَى مَا فى يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (٣) .



(٣) طه : ٦٥ - ٦٩

(٢) طه : ٥٦ - ٥٨

(١) الشعراء : ٤٩ - ٥١

● الواقعة فى الرواية :

حرص مؤلف الرواية على أن يستفيد منها فى الفصل الذى كتبه عن موسى ، أو جبل على حد رمزه له ، ولكن لم يملك إلا أن يخرجها من سياقها الإيمانى المشرق ، وضع مكانها واقعة خرافية بحثة ، حيث زعم أن الثعابين انتشرت فى البيوت عقب انفضاض اللقاء الذى تم بين موسى وفرعون ، وأن ذعراً أصاب الناس منها ، وبخاصة هدى هانم امرأة فرعون . فاضطر فرعون أو حضرة الناظر حسب رمزه فى الرواية إلى استدعاء موسى لتطهير بيت الناظر من الثعابين ، ثم تطهير بيوت أولاد الحارة ، وأن موسى قام بتطهيرها فعلاً ، بيد أن زقلط أو هامان أوحى إلى فرعون بأن موسى هو الذى نشر الثعابين فى الحارة ، فصدق فرعون وشاية زقلط - هامان - وأجمعاً على إبادة موسى وقومه ، فنشبت بينهم معارك كان النصر فيها لآل حمدان بزعامة موسى ، ووقع فرعون وهدى هانم فى أسر آل حمدان ، وبدأ فجر جديد لآل حمدان بهزيمة فرعون وملئه (١) .

أليس فى هذا مسخ للواقع ، وتزييف لسيرة عطرة كان انتصار الحق على الباطل هدفها الأول والأخير ؟

لقد أساءت رواية « أولاد حارتنا » إلى التاريخ الدينى النبوى ، وجردت ذلك التاريخ أو أحسن القصص كما سماه القرآن الكريم ، جردته من روحه ، وصيرته أُحدوثة فى أفواه الرعاع وسفلة القوم ، وكان فى وسع مؤلف الرواية أن يختار موضوعاً آخر مادة لخياله وهوايته الفنية ، ولو كان قد فعلَ لرحم نفسه ، وصان فنه من العبث والإسفاف ، ولكن ، وقد كان ما كان ، فليس أمامنا إلا الندم والتوبة ، مع التبرؤ من هذا العمل الآثم ، مهما كانت نتائج التبرؤ منه ، وإلا فالحساب عند الله عسير ثم عسير ، والله يحب عباده التوابين :

(١) أولاد الحارة ص ١٨٨ - ٢٠١ ملخصاً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١) .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .



● الدليل الثالث عشر - لمحة من التشريع فى العهد القديم :

مؤلف رواية « أولاد حارتنا » تتبع التاريخ الدينى النبوى من خلال آيات الذكر الحكيم ، ينقل الواقعة من القرآن إلى ذهنه ، ثم يُعمل فيها خياله ، ويقذفها على الورق مولوداً مشوه الوجه ، أشل الأعضاء شاحب اللون .

حتى مسائل التشريع اختلس بعضها ، وفى دليلنا الثالث عشر والأخير نضع أمام القُرَّاء الفقرات الآتية ، ولكن لا بد من تمهيد قصير لتيسير الفهم السريع :

● التمهيد :

ذكر المؤلف مشاجرة خيالية دارت بين رجلين من آل جبل - وهم بنو إسرائيل فى عهد موسى - المتشاجران هما : دعبس وكعلبها ، والسبب نقود كانت لدعبس (الشقى) (٣) عند كعلبها ، ففقاً لدعبس عين كعلبها ووقعت الكارثة وغضب جبل أو موسى لما حدث ، فقال بعض مشاهدى المشاجرة :
يرد دعبس النقود لكعلبها ، ثم دار النقاش الآتى :

جبل : فليرد إليه بصره أولاً .

رضوان : ليت فى الإمكان رد البصر .

(٢) الزمر : ٥٣

(١) النساء : ١١٦

(٣) دعبس هذا هو الذى تشاجر من قبل مع المصريين ، ومع ضلمة ، لذلك وصفناه بأنه « الشقى » .

جبل : ولكن فى الإمكان أن تؤخذ عين بعين .

دعبس : كنت فاقد العقل من الغضب ، وما قصدت إيذاءه !

جبل : عين بعين ، والبادئ أظلم . . إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدى بعضكم على بعض ، فإما حياة تقوم على النظام ، وإما فوضى لن تبقى على أحد ، لذلك أصر على تصفية عينك يا دعبس .

دعبس : لن تمسنى يد بسوء ، ولو قاتلتكم جميعاً .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج (١) . . وقال لكعلها بلهجة أمره : قُمْ فخذ حقتك .

وقام كعلها ولكنه وقف متردداً . .

جبل : تقدم قبل أن أدفئك حياً ؟ واتجه كعلها نحو دعبس وبسبابه ضرب عينه اليمنى حتى انفقات عينه على مرأى من الجميع « (٢) .

لقد استوحى المؤلف هذا السلوك من قوله تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... ﴾ (٣) .

أرأيت كيف يختلس المؤلف من آى الذكر الحكيم ، ثم يحرف الكلم عن مواضعه ، وهو يعلم الصواب ؟!

وبعد : من الذى لا يجزم بعد الذى قدمناه أن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو موسى عليه السلام ؟!

* * *

(١) هل هذا الوصف يليق بـ « جبل » الذى رمزت به الرواية لموسى عليه السلام .
إن هذا ليجعل الحلیم حيران ، وآية حيرة ورب الكعبة .

(٢) أولاد حارتنا ص ٢٠٧ - ٢٠٨ (٣) المائدة : ٤٥